دور الحضارة العربية الإسلامية فى النهضة الأوروبية
كنموذج لحوار الحضارات

الجميعى، عبد المنعم إبراهيم .
دور الحضارة العربية الإسلامية فى النهضة الأوروبية كنموذج لحوار الحضارات . ـ ط ١ . ـ القاهرة : وزارة الثقافة ، ٢٠٠٣ .
١٨٣ ص : ايض ملونة ؛ ٢٥ سم . ـ (مطبوعات بريزم الثقافية)
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.
تدمك ٤ - ٤٠٠ - ٣٠٥ - ٩٧٧

عرض

د. علاء عبدالستار مغاورى
مدرس بقسم المكتبات والمعلومات والوثائق
كلية الآداب، جامعة المنصورة

يكتسب الكتاب الذى بين أيدينا أهمية من نقطتين أساسيتين: تتعلق الأولى منها بمؤلفه، والثانية بموضوعه، وفيما يخص النقطة الأولى، فالكتاب لمؤلف متميز يتسم بغزارة الإنتاج واختياره لموضوعات غير مألوفة لمعالجتها وتقديمها بأسلوب سهل وبسيط. فمؤلفنا أستاذ ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية جامعة القاهرة فرع الفيوم، وعضو لجنة ترقية أساتذة التاريخ على مستوى الجامعات المصرية، وأمين عام الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . أما بشأن النقطة الثانية فالكتاب يتكون من مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة، وثلاثة ملاحق، ومجموعة منتقاة من الصور الملونة . والكتاب من القطع المتوسط، ويقع فى ١٨٣ صفحة، وصدر ضمن سلسلة كتب بريزم المتخصصة عن وزارة الثقافة المصرية . أما حول موضوع الكتاب فهو يتناول مصطلح جديد لم نسمع به سوى من بضع سنوات ، ألا وهو صراع الحضارات أو حوار الحضارات . فلقد غزا هذا الوافد الجديد حياتنا فى أوائل الألفية الثانية منذرا بالكثير من النقاش والجدل ؛ لذلك جاء الكتاب فى أربعة فصول جاء الأول منها بعنوان :

معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا .

حيث يشير هذا الفصل على مدار صفحاته إلى أن أوروبا قد تلقت آثار الثقافة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى عن طريق عدة معابر أبرزها الأندلس، وصقلية، وجنوب إيطاليا، وبلاد الشام، والحروب الصليبية. وعن طريق هذه المعابر تمكنت أوروبا من أحياء ثقافتها وازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون . ولكى تتضح هذه الصورة استعرض الكتاب تلك المعابر على النحو التالى :

أولا : الأندلس

فتح العرب الأندلس فى عام ٧١١ ميلادية، فكانت بذلك أول بلد يقتطعه العرب من أوروبا المسيحية ويضمونه إلى الإسلام . ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٤٩٢ ميلادية حكم العرب هذه المنطقة، وتركوا بصمات حضارتهم، عليها ونتج عن ذلك أن ظهر جيل جديد يعرف باسم المولدين، كما اعتنق عددا من الإسبان الدين الإسلامى . وقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها فى الأندلس عندما أصبحت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية، وذلك فى كافة الجوانب الثقافية والاقتصادية والفنية، فأقبل الإسبان على استخدام اللغة العربية، وأصبحت الأندلس مركز الحركة الرئيسى للترجمة من العربية ، كما تقدمت الصناعة تقدما باهرا، وظهر نظام ممتاز للرى والمنشآت المائية، ودخلت منتجات زراعية جديدة من الشرق مثل الأرز ، وقصب السكر، والنخيل ، والمشمش ، والرمان .

وقامت تجارة رائجة بين قرطبة والعديد من بلدان المسلمين، هذا إلى جانب ازدهار العلم والفن فلقد أنجبت الأندلس عددا كبيرا من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء نذكر منهم أبو محمد بن على بن حزم القرطبى الذى تظهر أصالته فى كتاباته التى نذكر منها طوق الحمامة . وما يقال عن ابن حزم يقال أيضا عن معاصره أبى مروان ابى حيان التوحيدى الذى يعد أعظم مؤرخ أنجبته إسبانية الإسلامية ، ومن أبناء قرطبة أيضا الجراح الشهير أبو القاسم الزهراوى. أما فى ميدان الفلسفة فنذكر أبا الوليد بن رشيد القرطبى الذى اشتهر بشروحه لكتب أرسطو .

ثانيا : صقلية وجنوب إيطاليا

ساعد موقع صقلية الجغرافى بين ساحل إيطاليا الجنوبى والساحل التونسى إلى جعلها حلقة اتصال حضارى وسياسى بين أفريقيا وأوروبا واعتبارها معبرا رئيسيا لنقل التراث الفكرى للحضارة الإسلامية إلى أوروبا خلال مدة حكم المسلمين لها والتى زادت عن قرنين ونصف من الزمان. حيث انتشرت المساجد والقصور والحمامات والمستشفيات. هذا إلى جانب الصناعات الجديدة التى أدخلوها كصناعات الورق والسفن، كما استخرجوا المعادن المختلفة كالكبريت والنفط والحديد والرصاص. ولقد بلغ التأثير الحضارى الإسلامى ذروته فى عهد الإمبراطور فردريك الثالث، وتبعة الملك روجر الأول الذى اهتم بالعرب وترك لهم الكثير من الوظائف الحكومية، وقد رأى العالم الإيطالى ميشيل أمارى أن الملك روجر الأول سلطانا عربيا يحمل تاجا كملوك الإفرنج . وقد خلف العرب وراءهم فى صقلية تراثا ضخما من الحضارة العربية .

ثالثا : بلاد الشام والحروب الصليبية

كانت بلاد الشام هى منطقة اللقاء الثالث بين الشرق والغرب فى العصر الوسيط إبان الحروب الصليبية؛ فلقد أسهمت ظروف تلك الحروب على المزيد من التعارف بين الجانبين؛ حيث نشأت صلات حضارية وتجارية بين الشرق والغرب، بمعنى أن هذه الحروب قد استخدمت كمعبر انتقلت عليه المدنية الإسلامية إلى أوروبا المسيحية، وإذا تتبعنا بعض المؤشرات الحضارية التى تأثر بها الإفرنج خلال الحروب الصليبية نذكر منها أن الصليبين

نظرا لقلة عدد النساء الإفرنجيات اللائى صحبن المقاتلين - أقبلوا على الزواج من المواطنات المسيحيات وبعض الأسيرات المسلمات، كذلك اخذ الصليبيون يكيفون حياتهم فى الشرق حسب مقتضيات الحال والمناخ. أما من الناحية الاقتصادية فيرى الكاتب استفادة الصليبيين؛ ففى ميدان الزراعة نقل الصليبيون عن المسلمين إلى أوروبا نباتات ومحاصيل لم تكن معروفة لديهم منها السكر والأرز والليمون والقطن، وفى ميدان الصناعة عرفوا كثيرا من المصنوعات الإسلامية مثل: المنسوجات الحريرية الموشاة، والأقمشة القطنية. هذا إلى جانب صناعة الورق، والصابون، والخزف. ومن الناحية المعمارية أضافت العمارة الإسلامية إلى التراث الفنى العالمى نظما لم تكن معروفة من قبل، ومن أمثلة ذلك: العقود، وأنظمة المساجد، والمدارس، والقصور، والحمامات، والقلاع.

رابعا : حركة الترجمة

بالإضافة إلى المعابر الثلاثة السابقة كانت توجد خطة منظمة لترجمة معارف المسلمين، ونقلها إلى اللاتينية فى العصور الوسطى، فانصرف الأوروبيون إلى دراسة علوم المسلمين بحماس بالغ ترك أثرة الواضح فى الفكر الأوروبى.

وهكذا تلقت أوروبا علوم المسلمين ودرستها، واستفادت مما فيها وأضافت إليها.

ثم جاء الفصل الثانى من الكتاب بعنوان الشواهد التى تؤكد تأثر الفكر الأوروبى بتراث العرب فى الأدب والفلسفة والجغرافيا والتاريخ والفنون والعمارة والموسيقى، فمن المعروف أن كل حضارة فى التاريخ قد استفادت من جهود السابقين.

ويعرض الكتاب الشواهد التى تؤكد تأثير الفكر الأوروبى بالفكر الإسلامى فى عدة مجالات.

أولا : الأدب

يعد عطاء العرب للنهضة الأوروبية فى ميدان الأدب عامة والشعر خاصة نبتا عربيا أصيلا للعرب، وكان من أشهر شعراء العرب فى فترة العصور الوسطى: أبو نواس، وابن الرومى، وأبو تمام، وأبو العلاء المعرى. ولقد تأثرت الآداب الأوروبية بالأدب العربى فى شعر المناجاة، والشعر الشعبى، والحكم والأمثال. هذا إلى جانب الرواية فعلى سبيل المثال لقد طبعت رواية ألف ليلة وليلة العديد من الطبعات باللغتين الإنجليزية والفرنسية. إن الأدب العربى كان يمثل أحد مظاهر الحركة الفكرية الإسلامية فى أوروبا فى العصور الوسطى.

ثانيا : الفلسفة.

كان اثر المسلمين فى الفكر الفلسفى الأوروبى كبيرا فى فترة العصور الوسطي؛ حيث عرفت أوروبا فلاسفة الشرق عن طريق الأندلس. فلقد برزت أسماء حنين بن إسحاق الذى قام بترجمة المقولات والفيزيقا والأخلاق لأرسطو إلى العربية، إلى جانب ذلك فقد قام ابن سينا الذى يعد أمام البحث الفلسفى فى العالم بتقديم شروح أرسطو وكانت له مدرسة خاصة استطاع من خلالها أن ينفذ إلى الدراسات الصوفية والكلامية.

ومن أهم مؤلفاته الإشارات والتنبيهات . أما الفارابى فقد كان من المفكرين العرب ذو الشأن واستطاع التأكيد على وحدة العقل الانسانى وإمكانية التفاهم بين الشعوب .

ثالثا : الجغرافيا

لا شك أن اتساع الدولة الإسلامية وامتدادها على مساحات واسعة فى قارتى أسيا وأفريقيا قد حتم على المسلمين ضرورة الوقوف على أحوال البلاد ومعرفة الطرق التى تربط بين أرجائها ومعرفة مقوماتها . ولقد ظهر بين العرب والمسلمين علماء أفذاذ فى مجال الجغرافيا كان من أبرزهم اليعقوبى ، أحد أوائل الجغرافيين العرب المسلمين ، الذى تناول الجغرافيا وجعل لها مفهوما كبيرا، فذكر أسماء الممالك والمدن وتعرض لطبيعة مناخها. وكان شمس الدين المقدسى وكتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم يقف فى قمة المؤلفات الجغرافية العربية. وبالنسبة لموسوعة ياقوت الجغرافية (معجم البلدان) فقد احتوت على جميع معارف العصور الوسطى عن الكرة الأرضية . أما أهم جغرافى من المسلمين فكان الشريف عبد الله الإدريسى صاحب الدور الأكبر فى تجديد هذا العلم والعناية به.

رابعا : التاريخ .

كان من الطبيعى أن ينال علم التاريخ نصيبه من الاهتمام والازدهار فى الحركة الثقافية الإسلامية، وتكشف كتابات اليعقوبى صاحب كتاب البلدان عن فكرة التاريخ العالمى ، كما أن كتاب تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبرى يجسد النزعة العامة التى أوجدتها وحدة العالم الإسلامى . أما كتاب فتوح البلدان للبلاذرى فإنه يكشف عن عظمة الفتوحات الإسلامية . ثم عبدالرحمن بن خلدون صاحب المقدمة فهو من قمم علماء التاريخ عند المسلمين حيث وضع تصوراته حول ما يسمى بدورة العمران أى تطور الجماعات البشرية من البداوة إلى الحضارة .

خامسا : الفنون والعمارة

وعن أثر الفنون الإسلامية فى الحضارة الأوروبية، فمن الواضح أن العرب قد استفادوا من فنون وحضارة البلدان التى فتحوها خاصة بلاد الفرس والروم، ثم نقلوا منها إلى أوروبا بعد أن أضافوا إليها من لمساتهم . وكانت المساجد هى المنشأت التى اهتم المسلمون ببنائهت وزخرفتها. ومن هنا برزت نواة الفن الإسلامى الممثلة فى تحريم الصور والرسومات والتماثيل داخل المساجد، أما عن القصور والمنشأت الاجتماعية والتجارية فلقد نجح الفنانون المسلمون فى المزج بين الفن الشرقى والفن الغربى فى وحدة جديدة . ولقد شملت الفنون الإسلامية كافة أنواع الفنون من تصوير ورسم وزخرفة وعمارة وموسيقى ، أما عن فن العمارة الحربى فيلاحظ أن الصليبيين قد أخذوا عن العرب العديد من فنون الاستحكامات عن طريق تقليد القلاع الإسلامية . ثم جاء فن السجاد الإسلامى الذى ذاعت شهرته فى أوروبا فى العصور الوسطى، وكانت مصانع النسيج فى صقلية تقلد المنسوجات الإسلامية .

سادسا : الموسيقى

تعد الموسيقى من الفنون التى كان للعرب دور كبير فيها، فقد ترجموا ما لدى اليونان والبابليين

والفرس والأشوريين . وقد تأثرت الموسيقى الغربية بالمسلمين فلم يعرف الغرب أى نوع من أنواع الانسجام الموسيقى فى العصور الوسطى إلا بعد أن تعرف الأوروبيون على البلاد الإسلامية . ومن أشهر المغنين والمغنيات العرب يقمر البغدادية، وإبراهيم الموصلى، وابنة إسحاق، وتلميذة زرياب الذى هاجر إلى المغرب والأندلس، وحمل معه إلى هناك الموسيقى الشرقية . إن الكثير من الآلات الموسيقية الحديثة التى عرفها الأوروبيون ترجع أصولها الى الآلات التى ابتكرها الموسيقيون المسلمون . ويؤكد المستشرق الفرنسى لوبوان أن الرقص والموسيقى فى إسبانيا مازال لهما تأثيرهما العربى .

ثم جاء الفصل الثالث من الكتاب بعنوان تراث العرب العلمى أثره فى الفكر الأوروبى فى مجال الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والطب والصيدلة. حيث سطع فى سماء الحضارات العربية الإسلامية مجموعة من العلماء ظلت كتبهم المراجع المعتمدة فى جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادى أمثال الكندى وابن الهيثم، وابن النفيس، وابن سينا، والبيرونى، وجابر بن حيان، والخوارزمى. وفيما يلى نعرض لأثر العرب فى تطوير المجالات العلمية السابق الإشارة إليها على النحو التالى :

أولا : الرياضيات

كانت الرياضيات من العلوم التى نبغ فيها العرب خاصة أنهم جمعوا بين علوم اليونان والهنود، وأعطوها صورة جديدة سواء الحساب أو الهندسة أو الجبر أو حساب المثلثات أو الميكانيكا؛ فلقد أوجد العرب طريقة الإحصاء العشرى، واستعملوا الصفر الذى يعد من أخطر الأرقام التى اهتدى إليها العقل البشرى . ولعل كتاب الخوارزمى «الجبر والمقابلة» يعد منهلا نهل منه العلماء العرب وأوروبا واعتمدوا عليه فى أبحاثهم .

يضاف إلى ذلك أن علماء الرياضيات المسلمون بحثوا فى نظرية ذات الحدين . إن العلماء العرب والمسلمون قد خطوا بالرياضيات خطوات واسعة أثرت فى العالم حتى اليوم .

ثانيا : الفلك

يرجع اهتمام المسلمون بالفلك إلى اهتمامهم بتحديد مكان القبلة، ومعرفة أوقات الصلاة، وأحوال الشفق لتحديد رؤية الأهلة، وكشفوا عن استدارة الأرض، وحققوا مواقع الكثير من النجوم، وساعد ذلك على تخليص علم الفلك من الخزعبلات والتنجيم .

ثالثا : الكيمياء

ولدت الكيمياء فى مصر القديمة، وماتت على أيدى اليونان والرومان، وعادت لتولد من جديد على أيدى العلماء العرب . ولقد استفاد الأوروبيون كثيرا من أبحاث العرب فى علم الكيمياء؛ فاحتل جابر بن حيان مكانة مرموقة؛ إذ ينسب إليه انه أكثر من اهتم بالتجارب المعملية، وجعلها شرطا أساسيا للعلم، كما أنه أول من حضر الأحماض، ووصف العديد من العمليات الكيميائية كالتقطير والتذويب والترشيح . ولقد ألف جابر بن حيان العديد من الكتب من أبرزها: كتاب الشمس، وكتاب القمر ، وكتاب التراكيب ، وكتاب السموم والأدوية .

رابعا : الطبيعة (الفيزياء)

لقد تفوق المسلمون تفوقا واضحا فى ميدان الفيزياء، وخاصة ما يختص بالعدسات، والبصريات، والصوت والمغناطيسية، والجاذبية . فلقد ألف الكندى كتابين فى البصريات هما: واختلاف المناظر ، اختلاف المنظر فى المرآة . هذا إلى جانب الحسن بن الهيثم الذى يعد أنبغ علماء الطبيعة فى العصور الوسطى . ومن علماء الطبيعة المسلمين المشهورين أيضا أبو الريحان البيرونى الذى بحث فى سرعة الضوء .

خامسا : الطب

لم يكن فى العالم المتحضر ما بين منتصف الثامن والخامس عشر علم طبى يعتد به إلا ما كان عند العرب . فلقد اهتم المسلمون به اهتماما كبيرا ، ومن أشهر أطباء المسلمين الذين نقل عنهم الغرب أبو بكر الرازى الذى برع فى علم التشريح . وابن سينا الذى يعد من اشهر الأطباء العرب على الإطلاق، ومن أشهر مؤلفاته القانون فى الطب والأدوية الطبية. وعلى أية حال فقد استفاد الأوروبيون من الطب العربى عن طريق الكتب الجامعة التى تتناول أساليب الجراحة والطب الإكلينيكى وعلوم العقاقير والأدوية .

سادسا : الصيدلة

كان نبوغ العرب فى الكيمياء من الأساسيات التى جعلتهم يتمكنون من علم الصيدلة، فظهرت المركبات الدوائية أضافوا إلى الأدوية الكثير . وقد جمع ابن البيطار فى كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» مجموعة من العلاجات المستخلصة من النباتات وعن داود الانطاكى ورد فى كتابه «تذكرة أولى الألباب» «والجامع للعجب العجاب» أن جاء لكل داء بدواء . إلى جانب ذلك كان للمسلمين الفضل فى إقامة أول مدرسة للصيدلة فى التاريخ .

ثم جاء الفصل الرابع والأخير من الكتاب بعنوان (لقاء الحضارات حوار أم صراع). حيث يذكر الكاتب انه على مر التاريخ يصعب تأكيد أنه حدث أن هناك دولة أو شعبا ينتمى أفراده إلى سلالة معينة أو ديانة واحدة فالنقاء الدينى والمذهب العرقى أمرا صعب وجوده؛ بين البشر . فلقد فطرت النفس البشرية على الطموح والارتقاء فى سبيل تحقيق هذه الحاجة، ويستمر هذا الفصل فى مناقشة المفاهيم التى توضح كذب المقولة بأن أدبنا وعلمنا وتقاليدنا وأحوال معيشتنا وديننا نحن العرب لا يصلح للحضارة الحديثة .

بقيت كلمة أخيرة فى هذا العرض، وهو الإشادة بمدى التناول الموضوعى المتسلسل لفصول الكتاب، ووجود الرابط المنطقى فيما بينها ، علاوة على اللغة السهلة القادرة على مخاطبة المثقف العام والفرد العادى لكن يلم بمفردة من مفردات العولمة ونقصد بها حوار الحضارات . الأمر الذى دعا وزارة الثقافة المصرية إلى عقد ندوة ضمت لفيفا من الخبراء والمختصين لمناقشة هذا الكتاب والاحتفاء به وبصاحبه .